مقتطفات:

إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (4)

من كتاب "عندما يتعرى الإنسان": منذ نصف قرن (3)

مُعجم الألفاظ الجاهز

وخوف الأهل من القادِم المهدِّد

http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD140517.pdf

بروفيســـــور يحيـــــــى الرخـــــــاوي
mokattampsych2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور 2017/05/14
السنة العاشرة - العدد: 3543

مقدمة:

إذن فالمسألة قديمة وراسخة، وهى تتجدد باستمرار

المقتطف الثامن) :مدخل حكاية "الضياع)

حوار الحكيم مع الفتى الناقه

(قبل الدخول إلى الحكاية)

.....

قال الحكيم:

=كان ذلك أمر غلام ولد كما يولد الناس فى هذه الأرض الطيبة: ففى ساعة متأخرة من ليلة شتاء أو قل فى ساعة مبكرة من صباح يوم تالٍ– طبقا لموقفك من الزمن– ترددتْ بين جنبات ذلك البيت المتوسط فى كل شىء صيحات طفل أطلقت أمه سراحه إلى رحاب الدنيا، واستراحت فى هدوءٍ عظيم، يحسبه الناس إعياءً وما هو كذلك، فهى تنصت إلى هذا المخلوق الجديد بسعادة فطرية بالغة، فبرغم الجهد وبرغم كل شئ.. كان يخامرها شعور لم يصل إلى درجة الوعى بأنها أكملت عملا مجيدا طوال أيام وليال عاشتها تسهم فى خلق وتكوين كائن حى جديد، ولعله شعور فريد تختص به المرأة الأم، ولعل هذا هو ما يميزها عن الرجل، ولعل هذا أيضا هو ما يدفع الرجل إلى محاولة المساواة بالمرأة وهو يحاول عملا أصيلا يعوض حرمانه من هذه القدرة الطبيعية على الخلق بمجرد الاحتواء، لعل..

قال الفتى:

–إذن فقد خرج صاحبنا إلى رحاب الدنيا مثل كل البشر.

قال الحكيم:

= نعم، ولكن رحاب الدنيا كانت أضيق من رحم أمه، فمنذ ملأ رئيته بالهواء، وملأ أذنى أمه ووجدانها بالصياح، ابتدأت عملية ملء رأسه بالأوهام، فها هو يـُفرض عليه أسلوب الحياة الجارى بتتابع وتصميم يلفـّانه ويعوّقان حركته تماماً مثل اللفائف التى أحاطت بجسده بعد ولادته، فقد تم الانقضاض على كيانه بهذه الكوافيل والأوهام فى آن واحد، وكأنه ارتدى قميص الأكتاف الشهير، ويفسر الأهل هذه التلافيف "بخوفهم" عليه: من الجو مثلا، والجو.. هو الطبيعة، وهو لم يزل جزءا منها، والطبيعة هى مصدر الحياة وأصل التوازن، فكيف تحمِل هذه الطبيعة ابتداء تهديد الخطر! ولكن هل هم يخافون

كان يخامرها شعور لم يصل إلى درجة الوعى بأنها أكملت عملا مجيدا طوال أيام وليال عاشتها تسهم فى خلق وتكوين كائن حى جديد، ولعله شعور فريد تختص به المرأة الأم، ولعل هذا هو ما يميزها عن الرجل

هذا أيضا هو ما يدفع الرجل إلى محاولة المساواة بالمرأة وهو يحاول عملا أصيلا يعوض حرمانه من هذه القدرة الطبيعية على الخلق بمجرد الاحتواء، لعل

عليه فعلا أم يخافون منه؟ أليس فى هذا الزعم الأخير تفسير لهذا الانقضاض المزدوج بالكوافيل والأوهام جميعا؟ ولكن من أين يأتى الخطر من هذا المخلوق الضعيف الذى لم يتشكل بعد؟ ربما يكمن فى أنه "لم يتشكل بعد"، فى أنه مشروع إنسان لم يُصَغْ بعد مثلما صيغ أبواه ومجتمعه؟ أهو احتمال أن يتشكل بشكل مخالف هو الذى يبعث الخوف فى الجميع لأنه يهدد ضمنا أوهامهم التى عاشوا فى أمن سخفها – أو فى سخف أمنها– حتى ذلك الحين؟!

سأل الفتى:

أيكون هذا هو السبب الذى يجعلهم يسرعون بإدخاله فى نفس الجهاز ليخرج بنفس الأبعاد التى يعيشونها، وعلى نفس الهيئة؟

قال الحكيم:

يبدو يا بنىّ أنه كل ذلك معاً.

فمن قبل أن يحس له بكيان ما، أخذوا يسارعون بإغراقه فى دوامة من التعويد، بعد التقييد، فمثلا هو

يتعود على ذلك الشىء البارد الذى يلامس مقعدته فى مواعيد منظمة مع ما يصاحب ذلك أو يتناوب معه من تأنيب وهجر، وهو يمارس وظيفة لا تختلف فى نظره عن الأكل والشرب، بل إن الأكل والشرب أيضا كانا يتحددان بساعة على الحائط يحترمون دقتها أكثر من احترامهم دقاته هو، فليصِحْ أو تـــُـدقُّ عنقه... فالساعة لم "تدقّ" بعد.

وتأتى سائر الأحكام على هذا النمط تماما، وهو يستسلم لكل ذلك، ويحقق بهذا رغبة والديه فى أن يكون نظيفاً ظريفاً، صالحاً "للعرض" على الزوار مع التحف التى على المناضد والصور التى على الحائط، والسجاد الذى على الأرض وسائر المميزات التى تحدد نوع طبقتهم ومعالمها، وكانت نظافته وهدوؤه ضمن هذه المعالم المميزة فضلا عن أنه كان يقوم بوظيفة تبرير حياتهم التى لابد أنها لا معنى لها بدونه، وإلا لما أجابوا السائل – وربما فى ذلك أنفسهم– بأنهم إنما يعيشون من أجلهم (الأولاد)، وكأنهم بغير الأولاد ليس لهم حياة قائمة بذاتها، فلو أن لهم حياة وذوات مستقلة، لأتاحوا للأولاد فرصاً أرحب، ولكنهم يُقنعون أنفسهم–ويتبادلون الإقناع مع الآخرين– أنهم يضحـــُّون فى سبيل الصغار.. فى حين أنهم يحتوونهم احتواء ليضمنوا لأنفسهم أمانا أو استمرارا.

وهكذا يتحمل صاحبنا ضياع والديه، كما يتحمل خوفهم ونقصهم، ويختلط الخوف بالوهم بالضياع ليصبح قالبا يصاغ فيه الأولاد، وهو قالب متين مضمون، يحفظ صاحبنا ويحافظ عليه.. يحافظ على حياته التى هى حياتهم التى هى "لا شىء" على قدر إدراكهم، أو قل على قدر عدم إدراكهم.

قال الفتى للحكيم:

– ولكنى أراك تصف الوالدين بلا رحمة.

قال الحكيم للفتى:

= بل أنا رحيم بهما قبل أولادهما، فإن المأساة فى أنهما "لا شىء" بإدراك أو بغيره، وهما فى خوف وحسن نية يحاولان أن يعددوا اللاشىء غير مدركين أن حاصل الضرب دائما هو "لاشىء".

قال الفتى:

– ولكن الوالدين ليسا كل شىء.. فسرعان ما سيتكلم صاحبنا وينطلق ويعرف طريقه إلى العالم الأوسع.

قال الحكيم:

= نعم... ربما... وياليته فعل.

لكن رحاب الدنيا كانت أضيق من رحم أمه، فمنذ ملأ رئيته بالهواء، وملأ أذنى أمه ووجدانها بالصياح، ابتدأت عملية ملء رأسه بالأوهام، فما هو يـُفرض عليه أسلوب الحياة الجارى بتتابع وتصميم يلفـّانه ويعوّقان حركته تماماً مثل اللفائف التى أحاطت بجسده بعد ولادته

وكأنهم بغير الأولاد ليس لهم حياة قائمة بذاتها، فلو أن لهم حياة وذوات مستقلة، لأتاحوا للأولاد فرصاً أرحب، ولكنهم يُقنعون أنفسهم– ويتبادلون الإقناع مع الآخرين– أنهم يضحـــُّون فى سبيل الصغار.. فى حين أنهم يحتوونهم احتواء ليضمنوا لأنفسهم أمانا أو استمرارا.

يتحمل صاحبنا ضياع والديه، كما يتحمل خوفهم ونقصهم، ويختلط الخوف بالوهم بالضياع ليصبح قالبا يصاغ فيه الأولاد، وهو قالب متين مضمون، يحفظ صاحبنا ويحافظ عليه.. يحافظ على حياته التى هى حياتهم التى هى "لا شىء" على قدر إدراكهم، أو قل على قدر عدم إدراكهم.

لقد كان خليقا به أن يجد القيود تخف عنه بعد أن أصبح ناطقا متحركا، فهو يستطيع التعبير عن نفسه فى المرحلة الجديدة، ولكن اللغة الجديدة فى صورة الألفاظ كانت عليه لا له، فقد سهلت سبيل تضييق الخناق، وبالتالى تحقيق الصياغة النموذجية "اجتماعيا" ولو عددتُ لك الأمثلة ما انتهى الحديث أبدا، ولكنى أعرض عليك بعض النماذج الرمزية لمعانى الألفاظ، فقد أصبح لفظ "الشارع" يعنى عنده "الموت تحت العجلات"، و"السلالم" "قصف الرقبة"، و"الظلام" هو "الجان" و"القذارة" هى "ابن البواب"... إلى آخر ذلك القاموس الذى تعرفه، وهو يعيش كل لفظ بمعناه المفروض عليه فى استسلام من لا يملك إلا الاستسلام، ولا تزال حصيلته تزداد بمرور الأيام لينمو قاموس المعانى بسرعة فائقة ويشمل أبوابا وفصولا جديدة تزيد حبكة الصنعة الاجتماعية فلا بد بعد أن تزدحم الصفحات من أن تصنف وتقسم: ففى فصل العيب، باب الحرام – مثلا – نجد ألفاظا تشير إلى أعضاء فى جسمه وأفكار فى رأسه، وعواطف فى صدره، وقد كانت تغلبه الحيرة، حتى وهو فى استسلام من لا يملك إلا الاستسلام، فيتساءل: لماذا خلقت هذه الأعضاء والعواطف ما دامت عيبا أو حراما؟ ويوضع فى رأسه أنها إنما خلقت لنخْفِيهَا، أو حتى لنحاربَها، فيخجل وينكمش، ويستسلم أكثر.

قال الفتى للحكيم:

– ولكن هذا يحدث لكل الناس.

قال الحكيم:

= وربما هذا هو: مأساة كل الناس.

قال الفتى:

– ولكن يبدو أنه لا بديل لذلك.

قال الحكيم:

= ها نحن نحاول أن نجد البديل، إذ نتدارس الحكمة الملقاة على الطريق فى صورة شظايا النفوس المتفجرة بدل أن نجمعها لمجرد لصقها لنمنع الأذى عن أنفسنا.

وبعد

هذا ما كان منذ نصف قرن،

لكننى حاليا وأنا أراجع للطبع (الورقى) ما كتبته سنة 2007، أى منذ عشر سنوات فقط، وهو الطبعة الثانية للجزء الثالث من ثلاثية" المشى على الصراط"، وعنوانه" ملحمة الرحيل والعود"، وجدت بين هذا العمل الأحدث وبين ما كتبتُهُ من نصف قرن فروقا دالة جدا، مما أغرانى أن تتبادل المقتطفات مع بعضها البعض لعلها تتكامل، وربما يكون فى ذلك بعض ما يبرر اعتذارى عن اختزال، أو تأجيل، ما كنت بصدده عن الفصام مغارة الضياع ووعود الإبداع ، وعلى الله قصد السبيل

"المأساة فى أنهما "لا شىء" بإدراك أو بغيره، وهما فى خوف وحسن نية يحاولان أن يعددوا اللاشىء غير مدركين أن حاصل الضرب دائما هو "لاشىء".

قد كانت تغلبه الحيرة، حتى وهو فى استسلام من لا يملك إلا الاستسلام، فيتساءل: لماذا خلقت هذه الأعضاء والعواطف ما دامت عيبا أو حراما؟ ويوضع فى رأسه أنها إنما خلقت لنخْفِيهَا، أو حتى لنحاربَها، فيخجل وينكمش، ويستسلم أكثر

*** *** ***

شبكة علوم النفس العربية
نحو لياقة نفسانية أفضل
مؤسسة العلوم النفسية العربية
معا ... نذهب أبعد
مركز بصائر للأبحاث والدراسات النفسانية
Bassaaer
وفى التفسير آفة تبصرون
Arabpsynet